ثم أخذ رسول الله يستقبل فترة الشباب من عمره فبدأ بالسعي للرزق وراح يشتغل برعي الغنم ، ولقد قال عليه الصلاة والسلام عن نفسه فيما بعد : « كنت أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة »[٧] . وحفظه الله من كل ما قد ينحرف إليه الشبان من مظاهر اللهو والعبث . قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن نفسه :

« ما هممت بشيء مما كانوا في الجاهلية يعملونه غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبينه ، ثم ما هممت به حتى أكرمني الله بالرسالة . قلت ليلة للغلام الذي يرعى معي بأعلى مكة : لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب ، فقال : أفعل ، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفاً فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : عرس ، فجلست أسمع ، فضرب الله على أذني ، فنمت فما أيقظني إلا حر الشمس ، فعدت إلى صاحبي ، فسألني فأخبرته ، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت مكة فأصابني مثل أول ليلة ، ثم ما هممت بعده بسوء »[٨] .

= في سفر النبي ﷺ وهو مراهق مع أبي طالب إلى الشام . وقال عنه ابن سيد الناس : في متنه نكارة (راجع عيون الأثر : ٤٣/١) . والغريب أن الشيخ ناصر الدين الألباني قال عنه ـ رغم هذا ـ في تخريجه لأحاديث (فقه السير) للغزالي : إسناده صحيح .. ولم ينقل من تعليق الترمذي عليه إلا قوله : هذا حديث حسن .. ومن عادته أن يضعف ما هو أصح من هذا الحديث بكثير .. هذا وأما القدر المشترك من القصة فثابت بطرق كثيرة لا يلحقها وهن .

(٧) رواه البخاري .

(٨) رواه ابن الأثير ورواه الحاكم عن علي بن أبي طالب وقال عنه : صحيح على شرط مسلم . ورواه الطبراني من حديث عمار بن ياسر .

العبر والعظات :

يدل حديث بحيرا عن رسول الله ﷺ - وهو حديث رواه عامة علماء السيرة ورواتها وأخرجه الترمذي مطوّلاً من حديث أبي موسى الأشعري - على أن أهل الكتاب من يهود ونصارى ، كان عندهم علم ببعثة النبي عليه الصلاة والسلام ومعرفة بعلاماته ، وذلك بواسطة ماجاء في التوراة والإنجيل من خبر بعثته وبيان دلائله وأوصافه . والدلائل على ذلك كثيرة مستفيضة .

فمنها ماارواه علماء السيرة من أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه ويقولون : إن نبياً سيبعث قريباً سنتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، ولما نكثوا عهدهم أنزل الله في ذلك قوله : ﴿ ولَمّا جاءهُمْ كتابٌ من عندِ اللهِ مصدقٌ لما مَعَهُمْ ، وكانوا من قبلُ يستفتحونَ على الذينَ كفروا فلَمّا جاءَهُمْ ماعَرَفوا كَفَروا بهِ فلعنةُ اللهِ على الكافرين ﴾ [البقرة ٨٩/٢] .

وروى القرطبي وغيره أنه لما نزل قول الله تعالى : ﴿ الذينَ آتيناهُمُ الكتابَ يَعْرِفونَهُ كما يعرفونَ أبناءَهُمْ ، وإنّ فريقاً منهم ليكتمونَ الحقّ وهُمْ يعلمون ﴾ [البقرة ١٤٦/٢] سأل عمر بن الخطاب عبد الله بن سلام وقد كان كتابياً فأسلم : أتعرف محمداً ﷺ كما تعرف ابنك ؟ فقال : نعم وأكثر ، بعث الله أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه بنعته فعرفته ، أما ابني فلا أدري ماالذي قد كان من أمّه . ولقد كان سبب إسلام سلمان الفارسي تتبع خبر النبي ﷺ وصفاته من الإنجيل والرهبان وعلماء الكتاب .

ولا ينافي هذا أن كثيراً من أهل الكتاب ينكرون هذا العلم ، وأنّ الأناجيل المتداولة خالية عن الإشارة إلى ذكر النبي ﷺ . فمن المعلوم بالبداهة ماتقلّب على هذه الكتب من أيدي التبديل والتغيير المتلاحقة . وصدق الله إذ يقول في محكم تبيانه :

﴿ ومنهم أمّيونَ لا يعلمونَ الكتابَ إلا أمانيَّ وإنْ هُمْ إلا يَظُنّون ، فويلٌ للّذينَ يكتبونَ الكتابَ بأيديهِمْ ثم يقولونَ هذا مِنْ عندِ اللهِ ، لِيَشْتَروا بهِ ثمناً قليلاً فويلٌ لهم مما كَتَبَتْ أيديهِم وويلٌ لهم مما يكسِبون ﴾ [البقرة ٧٨/٢، ٧٩] .

أما إقباله على رعي الأغنام لقصد اكتساب القوت والرزق ففيه ثلاث دلالات هامة :

الأولى : الذوق الرفيع والإحساس الدقيق اللذان جمّل الله تعالى بهما نبيه محمداً ﷺ . لقد كان عمه يحوطه بالعناية التامة ، وكان له في الحنوّ والشفقة كالأب الشفوق ، ولكنه ﷺ ما إن آنس في نفسه القدرة على الكسب حتى أقبل يكتسب ، ويجهد جهده لرفع بعض ما يمكن رفعه من مؤونة الإنفاق عن عمه . وربما كانت الفائدة التي يجنيها من وراء عمله الذي اختاره الله له ، فائدة قليلة غير ذات أهمية بالنسبة لعمه أبي طالب ، ولكنه على كلّ تعبير أخلاقي رفيع عن الشكر ، وبذل للوسع ، وشهامة في الطبع ، وبرّ في المعاملة .

الثانية : وتتعلق ببيان نوع الحياة التي يرتضيها الله تعالى لعباده الصالحين في دار الدنيا . لقد كان سهلاً على القدرة الإلهية أن تهيئ للنبي ﷺ ، وهو في صدر حياته ، من أسباب الرفاهية ووسائل العيش ما يغنيه عن الكدح ورعاية الأغنام سعياً وراء القوت .

ولكن الحكمة الإلهية تقتضي منا أن نعلم أن خير مال الإنسان ما اكتسبه بكدّ يمينه ولقاء ما يقدمه من الخدمة لمجتمعه وبني جنسه ، وشر المال ما أصابه الإنسان وهو مستلق على ظهره دون أن يرى أي تعب في سبيله ، ودون أن يبذل أي فائدة للمجتمع في مقابله .

الثالثة : إن صاحب أي دعوة ، لن تقوم لدعوته أي قيمة في الناس إذا ما كان كسبه ورزقه من وراء دعوته أو على أساس من عطايا الناس وصدقاتهم . ولذا فقد كان صاحب الدعوة الإسلامية أحرى الناس كلهم بأن يعتمد في معيشته على جهده الشخصي أو مورد شريف لا استجداء فيه حتى لا تكون عليه لأحد من الناس منة أو فضل في دنياه فيعوقه ذلك عن أن يصدع بكلمة الحق في وجهه غير مبال بالموقع الذي قد تقع من نفسه .

وهذا المعنى وإن لم يكن قد خطر في بال الرسول ﷺ في هذه الفترة ، إذ إنه لم يكن يعلم بما سيوكل إليه من شأن الدعوة والرسالة الإلهية ، غير أن هذا المنهج الذي هيأه الله له ينطوي على هذه الحكمة ويوضح أن الله تعالى قد أراد أن لا يكون في شيء من حياة الرسول قبل البعثة ما يعرقل سبيل دعوته أو يؤثر عليها أي تأثير سلبي ، فيما بعد البعثة .

وفيما قصه النبي ﷺ عن نفسه من خبر حفظ الله إياه من كل سوء منذ صغره وصدر شبابه ، ما يوضح لنا حقيقتين كل منهما على جانب كبير من الأهمية :

الأولى : أن النبي ﷺ كان متمتعاً بخصائص البشرية كلها ، وكان يجد في نفسه ما يجده كل شاب من مختلف الميولات الفطرية التي اقتضت حكمة الله أن يجبل الناس عليها . فكان يحس بمعنى السمر واللهو ويشعر بما في ذلك من متعة ، وتحدثه نفسه لو تمتع بشيء من ذلك كما يتمتع الآخرون .

الثانية : أن الله عز وجل قد عصمه مع ذلك عن جميع مظاهر الانحراف وعن كل ما لا يتفق مع مقتضيات الدعوة التي هيأه الله لها ، فهو حتى عندما لا يجد لديه الوحي أو الشريعة التي تعصمه من الاستجابة لكثير من رغائب النفس ، يجد عاصماً آخر خفياً يحول بينه وبين ماقد تتطلع إليه نفسه مما لا يليق بمن هيأته الأقدار لتتميم مكارم الأخلاق وإرساء شريعة الإسلام .

وفي اجتماع هاتين الحقيقتين لديه ﷺ دليل واضح على أن ثمة عناية إلهية خاصة تسيّره وتأخذ بيده بدون وساطة الأسباب المعروفة كوسائل التربية والتوجيه ، ومن ذا الذي يوجهه في طريق هذه العصمة وكل الذين حوله من أهله وبني قومه وجيرانه ، غرباء عن هذا الطريق ، ضالون عن هذه الوجهة ؟

لا جرم إذن أن هذه العناية الإلهية الخاصة التي جعلت لشباب النبي ﷺ طريقاً دقيقاً من النور يمخر عباب ظلام الجاهلية ، من أعظم الآيات الدالة على معنى النبوة التي خلقه الله لها وهيأه لحمل أعبائها ، وعلى أن معنى النبوة هو الأساس في تكوين شخصيته واتجاهاته النفسية والفكرية والسلوكية في الحياة .

وكان من اليسير أن يولد الحبيب الأعظم ﷺ ، وقد انتزعت من نفسه كل هذه الدوافع الغريزية إلى التمتع بالشهوات والأهواء ، فلا يجد في نفسه ما يدفعه أصلاً إلى ترك أغنامه أمانة عند زميله ليهبط إلى بيوت مكة فيبحث بينها عن قوم يسمرون أو يلهون ويمرحون . غير أن ذلك لا يدل حينذاك على أكثر من شذوذ في تركيبه النفساني ، وهي ظاهرة يوجد لها نماذج في كل قوم وعصر ، وإذن فليس ثمة ما يدل على العناية الخفية التي تصرفه عما لا يليق رغم وجود الدوافع الغريزية نحوه . وإنما اقتضت حكمة الله عز وجل أن يتبدى للناس من هذه العناية الإلهية بالرسول الكريم ما يسهل عليهم أسباب الإيمان برسالته ويبعد عن أفكارهم عوامل الريب في صدقه .

تجارته بمال خديجة وزواجه منها

كانت خـديجـة ـ كما يروي ابن الأثير وابن هشـام ـ امرأة تـاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجـال في مـالهـا وتضـاربهم إيـاه بشيء تجعلـه لهم منـه ، فلمـا بلغهـا عن رسـول الله صـدق الحـديث وعظم الأمـانـة وكرم الأخلاق ، أرسلت إليه ليخرج في مـالهـا إلى الشـام تـاجراً وتعطيـه أفضل ما كانت تعطي غيره ، ومعه غلامها ميسرة . وقـد قبل محمـد عليـه الصلاة والسلام هذا العرض فرحل إلى الشام عاملاً في مالها ومعه ميسرة . فحالفه التـوفيـق في هـذه الرحلـة أكثر من غيرهـا ، وعـاد إلى خـديجـة بـأربـاح مضاعفة ، فأدى لها ماعليه في أمانة تامـة ونبل عظيم . ووجـد ميسرة من خصائص النبي ﷺ وعظيم أخلاقه ماملأ قلبه ، دهشةً له ، وإعجـابـاً بـه فروى ذلك لخديجة .

فأعجبت خديجة بعظيم أمانتـه ، ولعلهـا دهشت لمـا نـالهـا من البركـة بسببـه ، فعرضت نفسهـا عليـه زوجـة بواسطـة صـديقتهـا (نفيسـة بنت منيّـة) ، فـوافـق النبي عليـه الصـلاة والسـلام ، وكلم في ذلـك أعمـامـه فخطبوها له من عمها عمرو بن أسد . وتزوجها عليه الصلاة والسلام وقـد تمّ له من العمر خمسة وعشرون عاماً ولها من العمر أربعون .

وقد كانت تزوجت خديجة قبل زواجها من رسول الله ﷺ برجلين الأول منهما عتيق بن عائذ التميمي ، ثم خلفه عليها أبو هالة التميمي واسمه هند بن زرارة[٩] .

العبر والعظات :

أما عمله ﷺ في مال خديجة ، فهو استمرار لحياة الكدح التي بدأها برعي الأغنام ، ولقد شرحنا طرفاً مما يتعلق بذلك من الحكمة والعبرة .

وأما فضلها ومنزلتها في حياة النبي ﷺ فلقد ظلت لخديجة مكانة سامية عند رسول الله ﷺ طوال حياته ، وقد ثبت في الصحيحين أنها خير نساء زمانها على الإطلاق .

روى البخاري ومسلم أن علياً رضي الله عنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد »[١٠] .

وروى البخاري ومسلم أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « ماغرت على نساء النبي ﷺ إلا على خديجة ، وإني لم أدركها ، قالت : وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة فيقول : أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة قالت : فأغضبته يوماً فقلت : خديجة ! فقال رسول الله ﷺ : إني قد رزقت حبّها »[١١] .

وروى أحمد والطبراني من طريق مسروق عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها ، فذكرها يوماً من الأيام ،

---

(٩) رواه ابن سيد الناس في (عيون الأثر) وابن حجر في الإصابة ، وغيرهما . وقد جرى خلاف في الأول منهما . والذي رجحه ابن سيد الناس ورواه قتادة وابن إسحاق أن الأول منهما هو عتيق بن عائذ والثاني هند بن زرارة .

(١٠) الضمير في نسائها عائد ـ كما تدل رواية مسلم ـ إلى السماء بالنسبة لمريم وإلى الأرض بالنسبة لخديجة . وقال الطيبي : الضمير الأول راجع إلى الأمة التي كانت فيها مريم ، والثاني إلى هذه الأمة . وانظر فتح الباري : ٩١/٧

(١١) متفق عليه واللفظ لمسلم .

فأخذتني العبرة فقلت : هل كانت إلا عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها ؟ فغضب ثم قال : « لا والله ماأبدلني الله خيراً منها : آمنت إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء » .

وأما قصة زواجه ﷺ منها ، فإن أول ما يدركه الإنسان من هذا الزواج هو عدم اهتمام الرسول ﷺ بأسباب المتعة الجسدية ومكملاتها ، فلو كان مهتماً بذلك كبقية أقرانه من الشبان لطمع بمن هي أقل منه سناً أو بمن ليست أكبر منه على أقل تقدير . ويتجلى لنا أنه ﷺ إنما رغب فيها لشرفها ونبلها بين جماعتها وقومها حتى إنها كانت تلقب في الجاهلية بالعفيفة الطاهرة .

ولقد ظل هذا الزواج قائماً حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عاماً ، وقد ناهز النبي عليه الصلاة والسلام الخمسين من العمر ، دون أن يفكر خلالها بالزواج بأي امرأة أو فتاة أخرى ، وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان هو الزمن الذي تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية .

ولكن محمداً ﷺ تجاوز هذه الفترة من العمر دون أن يفكر كما قلنا بأن يضم إلى خديجة مثلها من الإناث : زوجة أو أمة ، ولو شاء لوجد الزوجة والكثير من الإماء ، دون أن يخرق بذلك عرفاً أو يخرج على مألوف أو عرف بين الناس ، هذا على الرغم من أنه تزوج خديجة وهي أيم ، وكانت تكبره بما يقارب مثل عمره .

وفي هذا ما يلجم أفواه أولئك الذين يأكل الحقد أفئدتهم على الإسلام وقوة سلطانه ، من المبشرين والمستشرقين وعبيدهم الذين يسيرون من ورائهم ، ينعقون بما لا يسمعون إلا دعاءً ونداءً ، كما قال الله عز وجل .

فقد ظنوا أنهم واجدون في موضوع زواج النبي ﷺ مقتلاً يصاب منه الإسلام ويمكن أن يشوّه من سمعة محمد ﷺ ، وتخيلوا أن بمقدورهم أن يجعلوه عند الناس في صورة الرجل الشهوان الغارق في لذة الجسد العازف في معيشته المنزلية ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح .

ومعلوم أن المبشرين ومعظم المستشرقين ، هم الخصوم المحترفون للإسلام ، يتخذون

القدح في هذا الدين صناعة يتفرغون لها ويتكسبون منها كما هو معلوم . أما الأغرار الذين يسيرون من ورائهم ، فأكثرهم يخاصمون الإسلام على السماع والتقليد ، ولا يعنيهم أن يفتحوا أذهانهم لبحث ولا فهم ، إنما هو هواية التقليد والاتباع ، فخصامهم للإسلام ليس إلا من نوع الشارة التي قد يعلقها الرجل على صدره لمجرد أن يعرف بها بين الناس انتماؤه لجهة معينة ، ومعلوم أن الشارة ليست أكثر من رمز ، فخصومة هؤلاء للإسلام ليست سوى الرمز الذي يعلنون به عن هويتهم بين الناس : أنهم ليسوا من هذا التاريخ الإسلامي في شيء ، وأن ولاءهم إنما هو لهذا الفكر الاستعماري الذي يتمثل فيما يدعو إليه دعاة الاستعمار الفكري من مبشرين ومستشرقين . فهذا هو اختيارهم ، من قبْلِ أي بحث ودون محاولة أي فهم ! .. أجل ، فإن مخاصمتهم للإسلام ليست إلا مجرد شارة يَسِمونَ بها أنفسهم بين قومهم وبني جلدتهم ، وليس عملاً فكرياً لقصد البحث أو الحجاج .

وإلاّ ، فموضوع زواج النبي ﷺ من أهون ما يمكن أن يستدل منه المسلم المتبصر ، العارف بدينه والمطلع على سيرة نبيه ، على عكس ما يروجه خصوم هذا الدين تماماً .

يريدون أن يلصقوا به ﷺ صورة الرجل الشهواني الغارق في لذات الجسد ! .. وموضوع زواجه عليه الصلاة والسلام هو وحده الدليل الكافي على عكس ذلك تماماً . فالرجل الشهوان ، لا يعيش إلى الخامسة والعشرين من العمر في بيئة مثل بيئة العرب في جاهليتها ، عفيف النفس ، دون أن ينساق في شيء من التيارات الفاسدة التي تموج من حوله . والرجل الشهوان ، لا يقبل بعد ذلك أن يتزوج من أيم لها ما يقارب ضعف عمره ، ثم يعيش معها دون أن تمتد عينه إلى شيء مما حوله وإن من حوله الكثير وله إلى ذلك أكثر من سبيل ، إلى أن يتجاوز مرحلة الشباب ، ثم الكهولة ، ويدخل في مدارج الشيخوخة .

أما زواجه بعد ذلك من عائشة ثم من غيرها ، فإن لكل منهن قصة ، ولكل زواج حكمة وسبب يزيدان من إيمان المسلم بعظمة محمد ﷺ ورفعة شأنه وكمال أخلاقه . وأياً كانت الحكمة والسبب فإنه لا يمكن أن يكون مجرد قضاء الوطر واستجابة للرغبة الجنسية ، إذ لو كان كذلك لكان أحرى به أن يستجيب للوطر والرغبة النفسية في الوقت الطبيعي لهذه الرغبة وندائها .. خصوصاً وقد كان إذ ذاك خالي الفكر ليس له من هموم الدعوة ومشاغلها ما يصرفه عن حاجاته الفطرية والطبيعية .

ولسنا نرى الإطناب في الدفاع عن زواجه عليه الصلاة والسلام ، على نحو ما يفعل كثير من الباحثين ، إذ لا نعتقد أن ثمة مشكلة تحتاج إلى النظر أو البحث ، وإن أوهم خصوم الإسلام ذلك .

ورب حق من حقائق الإسلام ، لا يطمع خصومه لإبطاله ، بأكثر من استجرار المسلمين إلى مناقشة دفاعية في شأنه .

اشتراكه ﷺ في بناء الكعبة

الكعبة أول بيت بني على اسم الله ولعبادة الله وتوحيده فيه ، بناه أبو الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعد أن عانى من حرب الأصنام وهدم المعابد التي نصبت فيها .. بناها بوحي من الله تعالى وأمر له بذلك ﴿ وإذْ يَرْفَعُ إبراهيمُ القواعِدَ مِنَ البيتِ وإسماعيلُ ، ربَّنا تقبَّلْ منَّا إنّكَ أنتَ السَّميعُ العليمُ ﴾ [البقرة ١٢٧/٢] .

وقد تعرضت الكعبة بعد ذلك للعوادي التي أوهت بنيانها وصدعت جدرانها ، وكان من بين هذه العوادي سيل عرم جرف مكة قبل البعثة بسنوات قليلة ، حيث زاد ذلك من تصدع جدرانها وضعف بنيانها ، فلم تجد قريش بداً من إعادة تشييد الكعبة حرصاً على ما لهذا البناء من حرمة وقداسة خالدة . ولقد كان احترام الكعبة وتعظيمها بقية مما ظل محفوظاً من شرعة إبراهيم عليه السلام بين العرب .

ولقد شارك الرسول ﷺ قبل البعثة في بناء الكعبة وإعادة تشييدها مشاركة فعالة ، فلقد كان ينقل الحجارة على كتفه ، ما بينها وبينه إلا إزاره ، وكان له من العمر إذ ذاك خمس وثلاثون سنة في الأصح .

وروى البخاري في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : « لما بنيت الكعبة ، ذهب النّبي ﷺ والعباس ينقلان الحجارة ، فقال العباس للنّبي ﷺ : اجعل إزارك على رقبتك ، فخرّ إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء فقال : أرني إزاري فشدّه عليه » .

ولقد كان له ﷺ أثر كبير في حلّ المشكلة التي تسببت عن اختلاف القبائل حول من يستحق أن ينال شرف وضع الحجر الأسود في مكانه ، فقد خضع جميعهم لاقتراحه الذي أبداه حلاًّ للمشكلة ، علماً منهم بأنه الأمين والمحبوب من الجميع .

العبر والعظات :

نورد في تعليقنا على هذا المقطع من سيرته ﷺ أربعة أمور :

أولها : أهمية الكعبة ، وما جعل الله لها من شرف وقداسة في الأرض ، وحسبك من الأدلة على ذلك أن الذي باشر تأسيسها وبناءها هو إبراهيم خليل الله ، بأمر من الله تعالى لتكون أول بيت لعبادة الله وحده ومثابة للناس وأمناً .

غير أن هذا لا يعني أو يستلزم أن يكون للكعبة تأثير على الطائفين حولها أو العاكفين فيها ، فهي ـ على مالها من قداسة ووجاهة عظيمة عند الله ـ حجارة لا تضر ولا تنفع . ولكن الله عزّ وجلّ لما بعث إبراهيم عليه الصلاة والسلام بتكسير الأصنام والطواغيت وهدم بيوتها والقضاء على معالمها ونسخ عبادتها ، اقتضت حكمته جلّ جلاله أن يُشيِّد فوق الأرض بناء يكون شعاراً لتوحيد الله وعبادته وحده ، ويظل ـ مع الدهر ـ تعبيراً للعالم عن المعنى الصحيح للدين والعبادة وعن بطلان كل من الشرك وعبادة الأصنام . لقد قضت البشرية ردحاً من الزمن ، تدين بالعبادة للحجارة والأصنام والطواغيت وتنشئ لها المعابد ، ولقد آن لها أن تدرك بطلان كل ذلك وزيفه ، وآن لها أن تستعيض عن تلك المعابد هذا الرمز الجديد .. هذا المعبد الذي أقيم لعبادة الله وحده ، يدخله الإنسان ليقف عزيزاً لا يخضع

ولا يذل إلا لخالق الكون كله ، وإذا كان لا بدّ للمؤمنين بوحدانية الله والداخلين في دينه من رابطة يتعارفون بها ، ومثابة يؤوبون إليها ، مهما تفرقت بلدانهم وتباعدت ديارهم واختلفت أجناسهم ولغاتهم ، إذا كان لا بدّ من ذلك فليس أجدر من هذا البيت الذي أقيم رمزاً لتوحيد الله ، وردّاً على باطل الشرك والأصنام ، أن يكون هو الرابطة وهو المثابة لهم جميعاً ، يتعارفون في حماه ، ويلتقون على الحق الذي شيّد ليكون تعبيراً عنه . فهو الشعار الذي يجسد وحدة المسلمين في أقطار الأرض ، ويعبر عن توحيد الله والعبادة له وحده مهما أقيم من آلهة زائفة وانتصب من متألهين باطلين على مرّ الأزمنة والعصور .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وإذْ جَعَلْنا البيتَ مَثابةً للنّاسِ وأمناً ، واتّخِذُوا مِنْ مَقامِ إبراهيمَ مُصلّى ﴾ [البقرة ١٢٥/٢] ، وهذا هو المعنى الذي يلحظه الطائف بالبيت الحرام ، بعد أن يملأ قلبه من معنى العبودية لله تعالى والقصد إلى تحقيق أوامره من حيث إنها أوامر ومن حيث إنه عبد مكلّف بتلبية الأمر وتحقيق المأمور به . ومن هنا جاءت قداسة البيت وعظم مكانته عند الله تعالى وكانت ضرورة الحج إليه والطواف من حوله .

ثانيها : بيان أهم ماتعاقب على الكعبة من الهدم والبناء .

بنيت الكعبة خلال الدهر كله ، أربع مرات بيقين ، ووقع الخلاف والشك فيما قبل هذه المرات الأربع وبعدها .

فأما المرة الأولى منها : فهي التي قام بأمر البناء فيها إبراهيم عليه الصلاة والسلام يعينه ابنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وذلك استجابة منه لأمر ربّه جلّ جلاله ، ثبت ذلك بصريح الكتاب والسُّنة الصحيحة . أما الكتاب فقوله :

﴿ وإذْ يَرفعُ إبراهيمُ القواعِدَ مِنَ البيتِ وإسماعيلُ ، ربَّنا تقبَّلْ مِنّا إنّكَ أنْتَ السَّميعُ العليمُ ﴾ [البقرة ١٢٧/٢] .

وأما السُّنة : فأحاديث كثيرة ، منها ما رواه البخاري بسنده عن ابن عباس ، وجاء فيه : « .. ثم قال ـ أي إبراهيم ـ ياإسماعيل ، إن الله أمرني بأمر ، قال فاصنع ماأمرك ربك ، قال وتعينني ؟ قال : وأعينك . قال : فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً ، وأشار إلى أكَمَة

مرتفعة على ماحولها ، قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني .. »[١٢] .

ونقل الزركشي عن تاريخ مكة للأزرقي أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام جعل طول بناء الكعبة في السماء سبعة أذرع وطولها في الأرض ثلاثين ذراعاً وعرضها في الأرض اثنين وعشرين ذراعاً وكانت بغير سقف[١٣] ، وحكى السهيلي أن طولها في السماء كان تسعة أذرع[١٤] . أقول ولعل هذه أقرب من رواية الأزرقي .

وأما المرة الثانية : فهي تلك التي بنتها قريش قبل الإسلام ، واشترك في بنائها النّبي ﷺ كما ذكرنا . فجعلوا طولها في السماء ثمانية عشر ذراعاً ، ونقصوا من طولها في الأرض ستة أذرع وجزءاً من الذراع تركوها في الحجر[١٥] .

وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ فيما روته عائشة : « ياعائشة لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدّم فأدخلت فيه ماأخرج منه وألزقته بالأرض وجعلت له باباً شرقياً وباباً غربياً فبلغت به أساس إبراهيم »[١٦] .

وأما المرة الثالثة : فقد كانت عندما احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزتها جيوشه من أهل الشام ، وخلاصة ذلك أنهم حاصروا عبد الله بن الزبير بمكة بقيادة الحصين بن نمير السكوني في آخر سنة ست وثلاثين هجرية ، بأمر من يزيد ، ورموا البيت بالمنجنيق ، فتهدم واحترق ، فانتظر ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم ، فاستشارهم قائلاً : أيها الناس أشيروا عليّ في الكعبة ، أنقضها ثم أبني بناءها أو أصلح ماوهى منها ، فقال له ابن عباس : أرى أن تصلح ماوهى منها وتدع بيتاً أسلم الناس عليه وأحجاراً أسلم الناس عليها . فقال ابن الزبير : لوكان أحدكم احترق بيته مارضي حتى يُجِدّه فكيف بيت ربّكم ؟! إني مستخير ربّي ثلاثاً ثم عازم على أمري . ثم باشر نقضه بعد ثلاثة أيام حتى بلغوا به الأرض

---

(١٢) صحيح البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء باب قوله تعالى : ﴿ واتّخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ .

(١٣) انظر إعلام الساجد للزركشي : ٤٦

(١٤) عيون الأثر : ٥٢/١

(١٥) روى ذلك البخاري في كتاب الحج باب فضل مكة وانظر إعلام الساجد للزركشي : ٤٦

(١٦) متفق عليه واللفظ للبخاري .

فأقام ابن الزبير أعمدة من حوله وأرخى عليها الستور ثم باشروا في رفع بنائه وزاد فيه الأذرع الستة التي قد أخرجت منه ، وزاد في طوله إلى السماء عشرة أذرع ، وجعل له بابين أحدهما يدخل منه والآخر يخرج منه . وإنما جرّأه على إدخال هذه الزيادة حديث عائشة السابق عن رسول الله ﷺ[17] .

وأما المرة الرابعة : فقد كانت بعد مقتل ابن الزبير . روى الإمام مسلم بسنده عن عطاء أنه لما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يخبره بذلك ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أسٍّ نظر إليه العدول من أهل مكة ، فكتب إليه عبد الملك إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء ، أمّا ما زاد في طوله فأقِرّه ، وأمّا ما زاد فيه من الحجر فردّه إلى بنائه ، وسُدّ الباب الذي فتحه ، فنقضه وأعاده إلى بنائه[18] .

قالوا : وقد عزم الرشيد بعد ذلك على أن ينقضها ويعيدها كما بناها ابن الزبير ، فقال له مالك بن أنس رحمه الله : « أنشدك الله ياأمير المؤمنين أن لا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك بعدك ، لا يشاء أحد منهم أن يغيّره إلا غيّره ، فتذهب هيبته من قلوب الناس ، فصرفه عن رأيه فيه »[19] .

فهذه هي المرات الأربع التي بنيت فيها الكعبة بيقين .

أما الخامسة : التي وقع فيها الشك والخلاف : فهي تتعلق بما قبل بناء إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، هل كانت الكعبة مبنية قبل ذلك أم لا ؟

جاء في بعض الآثار والروايات أن أول من بناها إنما هو آدم عليه الصلاة والسلام ،

---

(١٧) انظر عيون الأثر لابن سيّد الناس : ٥٣/١ ، وإعلام الساجد للزركشي : ٤٦ . والحديث رواه مسلم ٢ : ٦٩ ، باب نقض الكعبة وبنائها ، وفي رواية للطبري وغيره أنها إنما احترقت بشرارة انطلقت إليها من نار كانت توقد حولها وانظر تاريخ الطبري : ٤٩٨/٥

(١٨) مسلم : ٩٩/٤

(١٩) هذا وفي شرح النووي على مسلم والفتح على البخاري ، أن الذي همّ بنقض الكعبة هو الرشيد ، وذكر في عيون الأثر وإعلام الساجد أنه أبو جعفر المنصور ، ومعلوم أن مالكاً رحمه الله عاصر كلاً من المنصور وهارون الرشيد ، فالاحتمال قائم .

ومن أبرز ماورد في ذلك ماورواه البيهقي في دلائل النّبوة من حديث عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « بعث الله عزّ وجلّ جبريل ﷺ إلى آدم وحواء فقال لهما : ابنيا لي بيتاً ، فخطّ لهما جبريل عليه الصلاة والسلام ، فجعل آدم يحفر وحواء تنقل حتى أصابه الماء فنودي من تحته حسبك ياآدم فلما بنياه أوحى الله إليه أن يطوف به ، وقيل له أنت أول الناس وهذا أول بيت ، ثم تناسخت القرون حتى حجه نوح ﷺ . ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد منه » .

ثم قال البيهقي : تفرد به ابن لهيعة هكذا مرفوعاً ، ومعلوم أن ابن لهيعة ضعيف لا يحتج به . وهنالك روايات وآثار أخرى قريبة في المعنى من هذا الذي رواه البيهقي إلا أن جميعها لا يخلو من ضعف أو نكارة . وقيل أيضاً أن أول من بناه شيث عليه الصلاة والسلام .

فتكون الكعبة ـ إذا اعتمدنا هذه الآثار والروايات الضعيفة ـ قد بنيت خمس مرات خلال الدهر كله .

غير أن الأولى هو اعتماد ماثبت يقيناً من ذلك ، وهو أنها بنيت أربع مرات كما أوضحنا ، وأما ماوراء ذلك وما بين هذه المرات فنكل علمه إلى الله عزّ وجلّ ، عدا عما لحقها من ترميمات وإصلاحات بعد ذلك .

ثالثها : مدى حكمة النّبي ﷺ في تدبير الأمور ، وسياسة القضايا ، وقطع دابر الخصومات ، وبين من ؟ بين أقوام قلما قامت بينهم خصومة ثم نامت قبل أن تراق فيما بينهم بسببها الدماء . وقد وصل بهم الخلاف كما تعلم إلى درجة كاد أن ينشب فيما بينهم القتال ، فقد قربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ثم تعاقدوا هم وبنو عدي على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم ، ومكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً ، دون أن يردها إلى الوفاق أي رأي أو تدبير ، حتى كان خمود نار الفتنة على يد رسول الله ﷺ . ونحن ينبغي أن نحيل هذه المزية فيه عليه الصلاة والسلام ، إلى مااختاره الله له من القيام بعبء الرسالة والنّبوة ، قبل أن نحيلها إلى العبقرية التي جبل عليها والذكاء الذي فطر عليه .

فـالأسـاس الأول في تكوينـه عليـه الصلاة والسلام ، أنـه رسول ونبي . ثم تـأتي المزايـا الأخرى كلها من عبقرية ودهاء وذكاء مبنية على هذا الأساس ولاحقة به .

رابعها : مدى سمو منزلتـه بين رجـال قريش على اختلاف درجـاتهم وطبقـاتهم ، فقـد كان ملقباً عندهم بالأمين ، وكان محبوباً منهم كلهم ، وكانوا لا يرتابون في صدقـه إذا حـدث ، وفي كريم أخلاقه إذا عومل ، وفي عظيم إخلاصه إذا مااستعين به واعتمد عليه .

وهذه ظـاهرة تكشف لـك عن مـدى الحقـد والعنـاد اللـذَيْن امتلأت بهما أفئـدة هؤلاء أنفسهم ، بعد أن جاءته الرسالة من عند الله ، وأخـذ يبلغهـا إلى هؤلاء الأقوام الـذين قـابلوه بالتكذيب والعناد والإيذاء .